العلاقة بين الفلسفة والدين من حيث الموضوع

ويمتد التشابه والاختلاف اللذان يعكسان العلاقة بين الفلسفة والدين من النشأة إلى الموضوع، حيث يبدو موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين، فإذا كان موضوع الفلسفة هو الوجود بكل ما فيه، حيث تبتغي الفلسفة من وراء دراسته الوقوف على ماهيته وحقيقته، سواء أكان وجودا طبيعيا أو وجودا بشريا، فإن هذا الوجود عينه هو موضوع دراسة الدين، حيث يقدم الدين تفسيرات دينية لنشأة الكون وحقيقته ومآله، وكيف وجد البشر في هذا الكون،ولأي سبب كان وجودهم، وإلى أين سيكون مآلهم ومرجعهم.

فإذا كان الفرد منصرفا إلى تدبير أمور حياته العملية، ومعالجة مشاكله اليومية الجارية، فإنه يسعى من أجل ذلك إلى تكوين مجموعة من المبادئ التي يسترشد بها في حياته الشخصية، أو مجموعة من المعتقدات الخاصة التي تمثل الزاوية التي ينظر من خلالها إلى الكون والحياة. فهو يؤمن مثلا بوجود إله يخشاه ويخشى عقابه ويراعيه في أفعاله وأقواله ومعاملاته، ويؤمن بالفضيلة، وبأن مطالب الروح أسمى من مطالب الجسد، وبكرامة الإنسان، وبالمبادئ الديمقراطية التي تجعل الناس متساوين في الحقوق والواجبات، وبمبدأ تكافؤ الفرص، وبمبدأ العدالة في توزيع الإنتاج، وبالاشتراكية أو الرأسمالية أو المزيج بينهما أو ما يمايزهما معا.

فمن الواضح أن تلك المبادئ مشتركة بين الدين والفلسفة، من الممكن أن يستمدها الإنسان من فلسفته الخاصة أو من معتقده الخاص الذي يدين به ويعتقده. ولذلك يرى البعض أن موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين. وهذا ما يؤكده هيجل إذ يرى أن الفلسفة موضوعها «الله» بصرف النظر عن أسمائه الفلسفية، المطلق، المثال، الوجود. وقد استطاعت الفلسفة الحديثة تحويل موضوعات الدين، والتعبير عنها بمفاهيم عقلية عامة، فأصبح الله عند هيجل هو التصور في المنطق، وإذا تحول داخل النفس أصبح الفكرة Idea ، وإذا تجسد في التاريخ أصبح الدولة. والدين هو فينومينولوجيا الدين، أي تتبع مظاهر الله وصوره المختلفة في الكون وفي التاريخ. إذا الفلسفة والدين عند هيجل موضوعهما واحد هو الحقيقة الأبدية، وهي الله. بل يتجلى الاتفاق أكثر في مجال «فلسفة الدين» كأحد المباحث الفرعية من الفلسفة مع الدين، فكافة الموضوعات التي تناقشها «فلسفة الدين» هي موضوعات الدين نفسه مثل: وجود الله، والنبوات، والمعجزات، ومشكلة الشر، والمعاد... وغيرها من المشكلات التي تكون من صميم موضوعات الدين ذاته، من قبيل: التجربة الدينية، ولغة الدين، والتعددية الدينية، والدين والأخلاق، والدين والسياسة، والعلم والدين، ومسألة النجاة، والمعرفة الدينية.

لكن هذا لا يمنع وجود بعض أوجه الاختلاف بين الدين والفلسفة من ناحية الموضوع، إذ يرى البعض أن طريقة تناول الفلسفة لموضوعات الدين هي طريقة نظرية جافة، بعكس تناول الدين لها بروحه الغلابة وقوته المحركة. كما أن الأديان السماوية تستند إلى الوحي كوسيلة وحيدة رئيسية للمعرفة، فليس فيها اكتساب وسعي بشري، بينما تقوم الفلسفة على الجهد البشري والتراكم المعرفي للخبرات الإنسانية. ولذلك يرى مصطفى النشار أن أبرز ما يميز الحقيقة الفلسفية أنها بشرية نسبية، حمالة أوجه، تختلف من فيلسوف إلى آخر، بعكس الحقيقة الدينية فهي حقيقة مطلقة مصدرها علوي سماوي إلهي، وهي بذلك تنأى عن أي شك وغير قابلة للتعديل أو للتطوير. كما أنه إذا عدنا إلى تلك المبادئ التي يكونها الإنسان ليسترشد بها في حياته العملية اليومية الجارية، فإننا سنجد البعض من الناس قد أقلقتهم مجموعة هذه المبادئ والمعتقدات الخاصة، أو بعضها على الأقل،

إلى درجة لا يملكون بعدها إلا أن يبحثوا عن تأصيل نظري لها، وأن يفتشوا عن الأسس والمقومات النظرية التي تدعمها.

وفي هذه المرحلة، يصبح الإنسان في مجال الفلسفة وحدها، ويتوقف مسمى الفلسفة على نوع الموضوع الذي يدرسه، فإذا كان الموضوع هو مبادئ الدين وفحصها بطريقة منظمة ونسقية، كانت

الفلسفة هنا فلسفة للدين. فالإنسان منا قد يعتقد بوجود الله، وقد يمثل هذا المعتقد محور حياته وأساس نظرته إلى الكون، لكن ذلك لا يرتقي به إلى مقام فلسفة الدين إلا إذا أقلقته مشكلة وجود الله بدرجة كافية دفعته دفعا إلى أن يفتش عن الأسس النظرية التي تدعم هذا المعتقد، وإلى أن يقرأ كل ما كتبه الفلاسفة والمفكرون حول مشكلة وجود الله.

كما يرى البعض إيغالا في الاختلاف بين موضوع الفلسفة وموضوع الدين، أن الفلسفة تعمل في جانب من جوانب النفس بينما الدين يستحوذ عليها جميعا، فإذا كانت الفلسفة ملاحظة، وتحليلا ، وتركيبا، فهي إذا صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة. أما الدين فهو حداء يحمل الحقيقة جملة، فيعبر بها هذه القشرة السطحية، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها، فتعطيها النفس كليتها، وتمل كها زمامها كما يذهب العديد من رجال الدين المناهضين للفلسفة إلى أن الفلسفة في موضوعها تميل إلى التقوقع والستعلاء، بينما ينزع الدين إلى التوافق والتصالح.

في حين تأتي أقوى أوجه الا ختلاف متمثلة في أن موضوع الفلسفة هو «عمل إنساني» يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود، وتدر ج بطيء في الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغير والتحول، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال. أما موضوع الدين ـ وخاصة السماوي منه ـ فهو «وحي إلهي» لا دخل للإنسان فيه، ولا يملك تجاهه إلا الطاعة والنصياع لأوامره ونواهيه، وهو يحمل الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.